الأهرام

المصدر :

التاريخ :

أريحا.. ذات الأسوار

تقصر السلطة الذاتية الفلسطينية كل التحولات في تاريخ البشرية

في التحقيق التالي الذي يستند الى اوثق المصادر التاريخية والاركيولوجية، تلقي «اورينت برس» الضوء على هذه المدينة الفريدة ذات الاسوار.. التي اعادها اتفاق اريحا.. غزة اولا الى دائرة الضوء من جديد.

تحتل مدينة اريحا التي تقرر ان تكون مقرا لسلطة الحكم الذاتي الفلسطينية في اتفاق «غزة واريحا اولا» مكانا بارزا في التاريخ. فهي اقدم مدينة جرى اكتشافها حتى الان، ولعلها المدينة الوحيدة في العالم التي يهتم بها علماء التاريخ والآثار والنبات والاجتماع وكل فرع من فروع المعرفة. بنفس القدر ومدينة اريحا تختصر التحولات الكبرى في تاريخ البشرية من مجتمع الصيد الى الزراعة، ومن استخدام الفئوس الحجرية الى الاسلحة المصنوعة من المعادن. ومن البداوة الى المجتمع الحضري. فقد مر عليها ما يزيد عن تسعة الاف سنة وشهدت ما يزيد عن ٢٠ ثقافة تحتل ٢٠ موجة بشرية، وعرفت التنظيم الاجتماعي والفنون المعمارية واساليب الري منذ فجر التاريخ.

وفي الميثولوجيا اليهودية ورد اسم اريحا باعتبارها المدينة الكنعانية التي استعصت على الغزاة العبرانيين بسبب سورها المنيع. وتذكر التوراة ان يهوه اله الحرب عند اليهود نفخ نفخة من بوقه ادت الى تدمير سور اريحا وفتح ابواب المدينة امام الاسرائيليين.

وفي العصر الحديث اعطت اسرائيل اسم اريحا لصاروخ متوسط المدى الذي يستطيع ان يصل الى اي مكان في الوطن العربي.. تيمنا ببوق يهوه.

تقع مدينة اريحا عند الطرف الشمالي للبحر الميت، وسط منطقة صحراوية قاحلة والناظر اليها من الجولا يستطيع ان يتبين الا مجموعة من الكثبان الرملية تمتد الى مالا نهاية. وتبدو المدينة وسطها بمنازلها الحديثة، واشجار النخيل التي تنتشر في كل مكان فيها وكانها واحة جميلة وسط الرمال. والى الشمال من المدينة، مجموعة من الحفريات الاثرية تفوق في اهميتها، اهمية المدينة الحديثة ذاتها. اذ انها تحوي ضمن تضاعيفها سجل مايزيد عن سبعة الاف سنة من الحضارة الانسانية، وتاريخ مايزيد عن عشر ثقافات بشرية متباينة. كما انها تحوي آثار مدينة اريحا القديمة التي تعتبر اقدم مدينة جرى اكتشافها حتى الان، في العالم.

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

ومدينة اريحا شهدت اول تجمع بشرى حضرى فى التاريخ شمل بناء المعابد وقنوات الرى والاسوار. لحماية السكان من الغزاة والطامعين... فالمعروف ان الانسان الصياد، وانسان الكهوف، ومجتمعات البداوة، فى الماضى السحيق كانوا يركزون كل طاقاتهم على الصراع من اجل البقاء، ولم يكونوا يمتلكون المصادر ولا الوقت لاقامة المنشآت العامة، كالمعابد، وقنوات الرى. وحتى لو قرر هؤلاء انشاء سور حول تجمعهم او قريتهم لحمايتهم من الغزاة، فمن يؤمن لهم الاكل، والمأوى اثناء فترة العمل؟ ومن هنا يجزم المؤرخون ان اقامة المنشآت العامة فى مكان ما يدل على ان المجتمع الانسانى فى ذلك المكان قد بلغ مرحلة كبيرة من التطور والتعقيد. ولعل وجود الاهرامات فى مصر، والاثار المتبقية من مبانى سومر هو الذى دفع المؤرخين الى القول ان اولى المدن فى العالم نشأت فى منطقة الشرق الاوسط قبل مايزيد عن ٤٠٠٠ سنة.

نظام تعاونى

وفى الخمسينات من هذا القرن، كشفت الحفريات التى جرت فى مدينة اريحا خطأ هذا الاعتقاد.. فقد ثبت ان هذه المدينة قديمة جدا.. الى درجة انها كانت تعتبر قديمة عندما بدأ المصريون ببناء اهراماتهم.. يضاف الى ذلك ان الاسوار التى جرى اكتشافها حول المدينة توحى بوجود مجتمع منظم بلغ مرحلة من التطور الى درجة انه وضع نظاما للتعاون وتقسيم المسئوليات والعمل.

ومدينة اريحا محاطة بعدة اسوار، انشئت او اعيد انشاؤها فى فترات تاريخية مختلفة، بعضها اقيم فوق بقايا اسوار قديمة، وبعضها فى مواقع جديدة حول المدينة، وبعضها دمره الغزاة وبعضها دمرته الهزات الارضية او عوامل التعرية من امطار ورياح واعاصير. عندما كان السكان يهجرون المدينة الى مواقع اخرى، كما كان يحدث بين الحين والاخر، عبر فترات التاريخ المتعاقبة، ولكن اقدم سور جرى اكتشافه يعود الى عام ٨٠٠٠ قبل الميلاد، اى قبل بناء الاهرامات فى مصر

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

بما يزيد عن ٥٠٠٠ سنة، وبالاضافة الى ذلك، لم يكن هذا السور مجرد مجموعة من الحجارة مرصوصة فوق بعضها البعض بهدف اعاقة الغزاة والمعتدين، وعرقلة تقدمهم وانما كان بسماكة تزيد عن مترين عند قاعدته، وينتهى بعقود وقناطر يبدو انها جلبت من خارج المدينة وجرى تركيبها فى مكانها بطريقة فريدة ولا احد يعرف ارتفاع السور الحقيقى عند بنائه ولكن ارتفاع الاثار المتبقية منه فى الوقت الحاضر ،بعدما يزيد عن ١٠ الاف سنة من الدمار وعوامل التعرية، يزيد عن ثلاثة امتار ونصف.

بعثة بريطانية

وعندما اعلن علماء الاثار اكتشاف سور اريحا فى الخمسينات من هذا القرن، لم يأبه احد بهذا الاعلان، فقد ورد فى التوراة ذكر السور وجاء ان «يهود نفخ فى البوق فتهاوى السور» ولكن المفاجأة جاءت عندما كشفت الوسائل التكنولوجية الحديثة ان السور يعود الى مايزيد عن ٦٠٠٠ سنة قبل وصول يهود الى فلسطين، ويبدو ان قصة يهوه التوراتية . وبوقه الغريب الذى دمر اسوار اريحا المنيعة، هى التى دفعت علماء الاثار عام ١٨٦٧ الى الاهتمام بهذه المدينة التاريخية . ففى ذلك العام، اوفد صندوق التنقيب عن الاثار فى فلسطين، البريطانى، مجموعة من علماء الآثار الى اريحا بهدف التنقيب عن الآثار اليهودية فيها، واثبات وجود حضارة يهودية فى فلسطين وبدأت البعثة عملها الى الشمال من المدينة الحالية، حيث كانت تقوم المدينة القديمة.

وعندما وصل افرادها فى الحفر الى ثلاثة امتار لم يجدوا ما يستلفت الانتباه سوى بعض قطع الخشب المتفحمة التى لم يفطنوا الى اهميتها الاركيولوجية. وعندما وصلوا الى عمق ستة امتار توقفوا عن البحث. فقد وصلوا الى منتصف سور ضخم يعود الى العصر البرونزى الاول «حوالى سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد» دون ان يدركوا ان ما توصلوا اليه هو سور اريحا. او لعلهم تجاهلوا ذلك، فقد كان السور يعود الى مايزيد عن ١٥٠٠ سنة قبل وصول يهوه الى فلسطين. وليس من السهل على علماء الاثار فى ذلك الحين ان يطرحوا شواهد اركيولوجية تناقض ماجاء فى التوراة.

اوان فخارية

وبعد هذه البعثة بما يزيد عن ٤٠ سنة، وصلت بعثة نمساوية المانية للتنقيب، واستمرت فى العمل بشكل متواصل من عام ١٩٠٨ الى عام ١٩١١. وقد عثرت هذه البعثة على بقايا اوان فخارية ولكنها لم تعثر على اية قطع نقدية معدنية او نقوش اثرية محفورة على الصخر، كما كانت تتوقع ولم تتمكن هذه البعثة من تقدير اهمية بقايا الاوانى الفخارية التى عثرت عليها ولذلك تخلت عن العمل، وعادت من حيث اتت، كالبعثة البريطانية قبلها بخفى حنين.

وفى عام ١٩٣٠ وصل الى اريحا عالم الآثار جون جارستانج، من جامعة ليفربول ليتوصل خلال السنوات الخمس من عمله «١٩٣٠ - ١٩٣٥» الى كشوفات ادت الى حدوث ضجة كبيرة فى الاوساط الاكاديمية والدينية فقد اكتشف ان هنالك سورين لمدينة اريحا عزاهما الى فترة وصول يهوه الى فلسطين «تبين فيما بعد انهما اقدم من ذلك بكثير» وعندما استمر فى التنقيب اكتشف ان المنازل داخل السورين لا تحتوى على انية فخارية وشعر جون جارستانج بالحيرة. فقد كان العلماء يعتقدون ان صنع واستخدام الاوانى الفخارية سمة لا بد ترافق كل التجمعات السكانية التى تتخلى عن حياة البداوة والتنقل والارتحال، وتقرر الاستقرار فى مكان معين. وها هو يكتشف مجتمعا حضريا كبيرا ازدهر فى اريحا عدة قرون، دون ان يستخدم الآنية الفخارية.

ذات الاسوار

وفى عام ١٩٥٢ وصلت عالمة الآثار البريطانية كاتلين كينيون الى

٢٠ ثقافة انسانية و ٩٥٠٠ سنة من الحضارة تحت ٣٣٠ مترا تحت سطح البحر

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

اريحا وبدأت العمل فاكتشفت سورا جديدا للمدينة يعود تاريخه الى ٦٠٠٠ سنة قبل الميلاد.. وقد نشرت فيما بعد عدة مقالات عن اكتشافها المذهل وصفت السور فيه بان «اقدم سور معروف فى التاريخ» وبعد ذلك بسنوات نشرت مقالا ذكرت فيه انها استخدمت كلمة «معروف» فى وصفها للسور، لانها على ثقة ان هنالك اسوارا اخرى لاريحا ستكشفها اعمال التنقيب.. اكثر قدما منه وبالفعل اكتشفت كينيون بعد ذلك بسنوات سورين، وليس سورا واحدا اكثر قدما من سورها الاول.

واول هذين السورين يعود تاريخه الى سنة ٧٠٠٠ قبل الميلاد ويزيد ارتفاعه عن خمسة امتار، والثانى يعود تاريخه الى عام ٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد ويزيد ارتفاعه عن ستة امتار وتحتوى منشآت السورين على ابراج ضخمة اشبه ما تكون بالقلاع الاوروبية الكبيرة فى القرون الوسطى ومن حيث الحجم يزيد ارتفاع البرج عن عشرة امتار.. وعند اسفل احدها عثرت البعثة الاستكشافية على ١٢ جمجمة يعود تاريخها الى ما قبل ٩٠٠٠ سنة، فيما بدا وكانه قبر جماعى وحول الابراج والسور الخارجى قناة يصل عمقها الى نصف متر تعتقد كينيون انها كانت تستخدم لاعمال الرى، وبذلك تكون اريحا قد استخدمت نظاما متطورا للرى قبل غيرها من الحضارات القديمة بكثير، ومما لا شك فيه ان استخدام نظام متطور للرى يشير الى ان سكان اريحا قد توصلوا فى ذلك الحين الى درجة عالية من التنظيم المدنى والتحكيم.. اذ ان نظاما من هذا النوع يتطلب احتساب كمية المياه التى يجرى تزويدها لكل حقل من الحقول، ووجود نظام تحكيمى لفض المنازعات بين المتنازعين فى حال نشوبها.

عيون... من الماضى

واريحا تنخفض بما يعادل ٣٢٠ مترا عن سطح البحر وجوها صحراوى شديد الحرارة فى اشهر الصيف وعلى مقربة منها ينابيع ماء تتدفق بغزارة منذ مايزيد عن ٩٥٠٠ سنة، بمعدل ١٠٠٠ جالون فى الدقيقة، مما حول المدينة الى واحة غناء وسط الصحراء.

وعيون الماء فى اريحا كانت، عبر العصور، تجتذب القبائل الرحل اليها، بين الحين والآخر، ومن هؤلاء جماعات كانت تقطن فى الكهوف المجاورة تعرف باسم «النطوفيين» وقد خلف هؤلاء فى المدينة بناء غريبا بيضاوى الشكل يعتقد علماء الاثار بانه معبد كانوا يمارسون فيه طقوسهم الدينية وبعد النطوفيين، استوطن المدينة جماعات تنتمى الى ما يطلق عليه العلماء اسم «الانسان النيولتيكى» أى ما قبل اكتشاف الآنية الفخارية حوالى العام ٨٠٠٠ قبل الميلاد وكان هؤلاء يعيشون فى منازل دائرية الشكل مصنوعة من الحجارة الطينية المجففة بالشمس والمصنوعة باليد.. وقد انشأ هؤلاء سورا حول اريحا واعادوا بناءه عدة مرات خلال فترة تزيد على ٧٠٠ سنة.

شعب الارضيات الجيرية

وحوالى عام ٧٠٠٠ قبل الميلاد وفدت الى اريحا جماعات جديدة اكثر تقدما تستخدم هى الاخرى الحجارة الطينية فى بناء مساكنها ولكن بشكل يختلف عن السابق. فقد كانت حجارتهم اسطوانية الشكل، مستطيلة ومدموغة ببصمات العمال الذين صنعوها وقد توصل هؤلاء الى صناعة الجير اللاصق، واستخدموه فى البناء وتشييد ارضية منازلهم ولذلك عرفهم العلماء باسم «شعب الارضيات الجيرية» وكانت المنازل التى يقيم فيها هؤلاء مستطيلة الشكل وليست دائرية.. ويعتبر العلماء هذه المنازل تطورا مثيرا فى تاريخ اساليب الاستيطان البشرى، اذ ان الاشكال الدائرية موجودة فى الطبيعة من جذوع الاشجار واسقف الكهوف وقوس القزح.. ومن السهل على الانسان القديم ان يقلدها. اما الاشكال المستطيلة، فلا شك انها من ابتكار البشر.

مركز تجارى

وفى تلك الفترة، كانت اريحا قد تحولت الى مركز تجارى مهم، وقد كشفت الحفريات التى اجريت فى المدينة عن وجود العديد من «البضائع الاجنبية» فيها مثل حجر الاوبسيدان، والاصداف البحرية، والهيماتيت «وهو مادة من اوكسيد الحديد كانت ذات قيمة كبيرة فى العالم القديم بسبب لونها الاحمر».

وحوالى عام ٦٠٠٠ قبل الميلاد هجر السكان اريحا واسوارها وابراجها وانتقلوا الى امكنة اخرى. وبعد ما يزيد عن الف سنة، اى فى الالف الخامس قبل الميلاد استوطنتها مجموعات بشرية جديدة يبدو انها اقل تطورا من سابقاتها اذ ان افرادها لم يبنوا منازل لانفسهم ولم يخلفوا قبورا، ولابد انهم كانوا يتركون جثث موتاهم طعما للحيوانات.. ولم يبن هؤلاء سورا حول المدينة، فقد كانوا بدائيين الى درجة انهم لايستطيعون تنفيذ عمل جماعى من هذا النوع، يحتاج الى تنظيم.. ومع ذلك فانهم عرفوا الاوانى الفخارية.

وبعد شعب الاوانى الفخارية استوطنت اريحا مجموعات جديدة من البشر. وكان الالف الثالث قبل الميلاد قد اوشك على الاقتراب حاملا بشائر العصر البرونزى. وقد عرف هؤلاء الاضرحة، فكانوا يدفنون موتاهم فيها ويدفنون معهم ممتلكاتهم الدنيوية، كالخناجر والعقود والاثاث والاكل، وبذلك خلفوا ثروة كبيرة للباحثين عن تلك الفترة من التاريخ.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

رسوم.. على الجدران

وتشير الرسوم التى خلفتها الموجات البشرية التى تتابعت على اريحا خلال العصور التاريخية تلك الى تأثر سكانها بالثقافة المصرية وبثقافة بلاد ما بين النهرين. وخلال العصر البرونزى الذى استمر ما يزيد عن ١٥٠٠ سنة توالت عدة موجات بشرية على اريحا بعضها انشأوا اسوارا حول المدينة. وخلال الفترة الواقعة بين عامى ٣٠٠٠ قبل الميلاد و ٢٣٠٠ قبل الميلاد، انشىء السور واعيد بناؤه مايزيد عن عشرين مرة. ومعظم هذه الاسوار كانت مزدوجة تفصل مسافة قصيرة فيما بين الواحد منها والآخر ويبدو ان الشعوب فى تلك الفترات من التاريخ تعمدت بناء الاسوار المزدوجة لاسباب استراتيجية بحيث انه اذا جرى اكتساح سور منها من قبل الغزاة يظل السور الثانى قائما ويشكل عائقا جديدا.

وهجر السكان اريحا بعد ذلك. وعندما قرروا العودة اليها من جديد، اختاروا موقعا جديدا لها يبعد مئات الامتار الى الجنوب من موقعها القديم. وفوق هذا الموقع.. تقوم اريحا الحالية. اما الموقع القديم. فقد تحول الى شبكة من الحفريات واعمال التنقيب.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية